الفصل الثاني

الحوار الديني والحضاري في فكر مالك بن نبي

تمهيد

سوف نتعرض في هذا الموضوع إلى مساهمة قطب من أقطاب الفكر الجزائري المعاصر، في الفكر والحضارة الإنسانية، لا على مستوى العالم العربي الإسلامي، فحسب، بل وعلى المستوى العالمي أيضا، ونقصد بذلك ما قدمه مالك بن نبي للحضارة الإنسانية، الذي ابرز من خلال مؤلفاته العديدة والمتعددة والمتنوعة، مختلف العوامل والأسباب المؤدية إلى بناء الحضارة وازدهارها، وإلى عوامل أفولها وانهيارها، ولا يمكن اعتبار بن نبي من هذه الرؤية هو طفرة جديدة في الحضارة التي نشأ في ظلها وتشبع بروحها، وأعني الحضارة العربية الإسلامية، وإنما هو حلقة من حلقاتها التي خفت نورها منذ أمد بعيد، ولكنها حضارة تشهد عليها مآثرها في مختلف الميادين، والقارات، وأدت إلى اعتراف خصومها بها قبل الموالين لها.

ومن النادر جدا في تاريخ الفكر العربي الحديث والمعاصر، من اهتم بالحضارة الحديثة، مثلما اهتم بها ابن نبي، الذي كان رجلا عمليا، حتى عدّ المفكر العربي الوحيد الذي اعتنى بمنظومة الحضارة بعد ابن خلدون، بالرغم من طول الهوة الزمنية الفاصلة بين عصريهما. غير أنه تميز عن ابن خلدون في أنه استطاع أن يطلع على

صورة الآخر وعلى منظومته الحضارية، وأقصد بذلك الحضـــارة الغربيـــة، الـــتي لم تستطع سلب نظره وفكره، رغم مظاهرها البراقة في كثير من الميادين الاقتصـــادية والمعيشية. وبقي ابن نبي، وفيا لتراثه الإسلامي وأصـــولـــه.

وكان يعتبر أن المشكلة التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، أو أي شعب آخر، هي مشكلة حضارية، ويعتقد أن أي حل لها لا يتم إلا إذا ارتفع الشـــعب بفكـــره، ووعيه إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وتعمق في إدراك وفهم العوامل التي تؤسس الحضارات، و تقوم بهدمها.

إن هذه هي المسألة الأساسية التي انطلق منها، إبن نبي، في تفسيره الشـــامل للحضارة، ومنها كان يعتقد أن الحل الأساسي لكل القضايا والمشاكل لأي شـــعب، إنما يكمن في بنية الأمة ذاتها وفي روحها، لأنه يستحيل حسبه رأيه أن تبنى حضـــارة بشراء أدواتها ووسائلها وإنما لابد لها أن تخلق هي ذاتهـــا أدواتهـــا ومنتجاتهـــا، لأن مفهومه الأساسي للحضارة، هي أنها بناء، وليست مجرد استهلاك.

وقد حدد مالك بن نبي عناصر أية حضارة في ثلاثة أركان، وهي: الإنســـان، التراب، الزمن. ويتبين من هذه العناصر أن الحضارة ظاهرة اجتماعية يتميـــز بهـــا الكائن البشري، وعلى هذه الرؤية يؤكد ابن نبي على ضرورة التواصل الحضـــاري بين الأمم، لأنه هو وحده الذي يحقق الرفاهية والسعادة الإنسانية، ولا يتم ذلك إلا في إطار التسامح والتعاون، الذي تحترم فيه الأمم بعضها بعضـــا. وســـنركز محـــور موضوعنا على أهم العناصر التي شكلت هذا التواصل الحضاري في رأي ابن نـــبي، رغم أن ما سنقدمه لا يمثل إبداعا جديدا، بقدر ما نسعى فيه إلى تفكيـــك المســـألة

الحضارية عند ابن نبي وقراءهّا قراءة أخرى، نعتقد أنها تتوافق ومقتضيات العصر، وضرورات الظروف.

أولا: مفهوم الحضارة

إن مصطلح الحضارة يدل في مفهومه البسيط على ذلك التقدم، والتطور والرقي العقلي والمادي معا، الذي ينتج من خلال جدلية التفاعل الإيجابي والسلبي بين الأمم والشعوب،وبين الإنسان والظواهر المحيطة به، أي بين دال ومدلول، وهي بالتالي ذات طابع اجتماعي، إنساني[١]. تتعلق بتطوير الإنسان لمجموع الشروط المادية والثقافية التي يعيشها، ومن ثم فهي عبارة عن مجموعة الخصائص المرتبطة بحياته الاجتماعية والأخلاقية والسياسية و الثقافية[٢]، التي تبتعد فيها الإنسانية عن صراعاتها وخلافاتها، وعن أنانيتها، وتعمل في وحدة واحدة من أجل هدفها المشترك، وكلما حققت ذلك الهدف، اقتربت من الكمال الإنساني، وأزالت هوة التباعد بين عناصرها. ونحن نعتقد أن من بين المحاولات الأولى التي تناولت الموضوع بإسهاب – كما سبقت الإشارة[٣] هي محاولات ابن خلدون، التي شكلت البناء الأولي في فكر ابن نبي — على وجه الخصوص — في حديثه عن الحضارة، مما دعاه إلى أن يلاحظ بأن الإنسان في ذاته هو كائن حضاري قبل أن ينتج الحضارة، حيث أشار بقوله إلى أن: ((الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي

---

(١). جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج١، ص٤٧٧.

(2). Encyclopedie Klio larousse Multimedia

(٣). راجع: العنصر الأول من هذا الفصل.

ينتج حضارة، وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء))[1] بمعنى أن الإنسان أينما كان وحيثما وجد فإنه يسعى إلى التحضر والحضارة.

إن المتتبع لفكر ابن نبي والمتصفح له لا يجد صعوبة في استجلاء مضامين الحضارة، إذ لا يخلو كتاب من كتبه من الإشارة إليها، وكان السياق العام الذي تناول فيه الحضارة هو ربطها بالوظيفة التي تؤديها، حيث كان يقول، يجب أن تتحدد الحضارة: ((من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه))[2]، بمعنى أن مالك بن نبي، يضع شروطا معينة يخلقها المجتمع نفسه حتى يستطيع الانتقال من طور التخلف، إلى المستوى الحضاري المنشود.

ثانيًا: أثر التسامح في البناء الحضاري

إن التسامح مهما كان مظهره يلعب دورا أساسيا في رقي الأمم وتطورها سواء كان على مستوى أهل الديانة الواحدة، أو بينهم وبين أهل الديانات الأخرى، ويقدم لنا مالك بن نبي صورا حية من التاريخ الإسلامي الحافل بالتسامح بين أبنائه،

---

(١). ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٢٣.

(٢). مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص ٤٦ ــ ٤٧.

وبينهم وبين غيرهم، ومن صور ذلك التسامح التي كانت سائدة بين أبناء الأمة الإسلامية أيام ازدهار حضارتها، حينما كان الإقناع والاقتناع يتمان بالحجة، المثال الذي يقدمه على ما فعله ابن الراوندي في أوائل القرن الرابع الهجري عندما انتقص من قيمة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم،

ووصفه ببعض الأوصاف التي لا ترقى إلى شخصيته ومكانته[1]، ورغم ذلك فإن المسلمين وعلى كل المستويات، ساسة، ومفكرين، وعامة لم يعقدوا له محاكمة ولم يهدروا دمه، وحاولوا الرد عليه بالحجة الفكرية والعقلية، وذلك هو البعد الحضاري التسامحي الذي تعلموه من دينهم، أليس هذا المثال وغيره دليل على أسمى صور التسامح المبنية على الحجة والدليل؟ ألم نشاهد اليوم الكثير من المسلمين يكفرون بعضهم بعضا، ويحاربون بعضهم بكل الوسائل المتوفرة؟ ألا يمكن اعتبار هذه الصور مظاهر للتخلف والانحطاط؟ ألا تعبر عن جهل بالإسلام، وبمبادىء السمحة؟.

وبناء على مبادىء الدين الصحيحة كان ابن نبي، يحث: ((المربين في البلاد العربية والإسلامية أن يعلموا الشبيبة كيف تستطيع أن تكشف طريقا تتصدر به موكب الإنسانية))[2]، وتبتعد عن كل السلوكات التي تستند إلى التعصب الذي يكون عائقا في وجه كل بناء حضاري، وكان اعتماد ابن نبي فيما يذهب إليه هو تمثله لمبادىء الدين الحنيف، الذي يقرر مبادىء التسامح.

---

(١). ابن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر الجزائر، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، ص ١٨٦.

(٢). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٩٨٤م، ص١١٨.

إن التزامنا بقيم الدين، وبقيم الحضارة، والإنسانية، هو المعبر الوحيد الـذي يوصلنا إلى ما كان ابن نبي يحث الشبيبة العربية الإسلامية على الالتزام والتمسـك به، حين قال: ((ولو أتيح لهذه الشبيبة [العربية الإسلامية] أن تعتنق مشكلة تكامل الإنسانية اعتناقا تمنحها معه كل ذكائها وكل قلبها، حتى تجعـل منـها رسـالتها، فسوف تحتل مقام الصدارة في الزحف نحو اتجاه جديد، نحو تقرير مصائر الإنسـانية، ولعلها بذلك تمحو الشرور التي تفشت اليوم في حنايا أنفسنا، ولعلها أيضـا تمحـو بعض الشوائب والمذاهب التي خامرت عقولنا))[1].

ومن هذا المنطلق كان ابن نبي يدعو إلى الخـروج مـن مظـاهر التخلـف والانحطاط، وإلى الرقي والتقدم والحضارة، بحثه على التسامح والتعاون، سواء بـين أفراد الدين الواحد، أو بين الأفراد في كل الأديان، وذلك باعتبار التشـابه القـائم بينها، ولا سيما في اتفاقها في مبدأ التوحيد، مثلا، وهو ما أكده القـرآن الكـريم، وفي هذا المعنى يقول ابن نبي: ((فإن القرآن يؤكد مستعلنا صلته بالكتاب المقـدس، فهو يطلب دائما مكانه في الدورة التوحيدية، وهو بهذا وبذاك يثبت ـ باعتـداد ـ التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة، ويلفـت إليهـا النبي نفسه كلما جدت مناسبة، وهاك فيما نذكر آية تنص بخاصة على تلك القرابة: "وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الـذي بـين يديـه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين"[2]))[3]، وذلـك لـيس بالنسـبة

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص ١١٨.

(٢). يونس، الآية ٣٧

(٣). مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ص٢٤٠.

للديانات السماوية كاليهودية والمسيحية فحسب، بل حتى بين المسلمين والهندوسيين، لأن أمر المواجهة، والتسامح بينهما: ((لن يكون محاولة للتلفيق والاصطناع، بل لابد من ميثاق أخلاقي بينهما ليتخذا وجهة دولية واحدة، وليس في هذا تجديد للمحاولة الخائبة التي قام بها الإمبراطور (أكبر) الذي أراد في القرن السادس عشر أن يؤسس إمبراطورية في الهند على أساس تلفيق وحدة إسلامية هندوسية))[1]، وإنما على أساس أن يصب التعاون بين الأديان في إطار الوحدة الدينية العالمية القائمة على التسامح بين الأديان والشعوب، ولذلك فإن: ((مهمة الإنسانية اليوم خاضعة في عمومها لقضية السلام، التي تفرض نفسها مقدما على كل مشروع اجتماعي أو روحي في العالم الراهن، فمشكلة السلام قد أصبحت هي النقطة التي تلتقي عندها خيوط التاريخ جميعا))[2]، وعلى هذا فقد كان ابن نبي انطلاقا من هذا المبدأ يرى أن الشعوب المتأخرة، هي أولى من غيرها بالالتزام بهذا المبدأ، وهو مبدأ التسامح والسلام بين الشعوب.

وفضلا عن ذلك، فقد قدم ابن نبي بعض النماذج التسامحية التي كانت تربط الإنسان المسلم بغيره من أهل الديانات الأخرى، وخصوصا أولئك الذين كانت لهم مواقف منافية للإسلام، مثل ذلك اليهودي الذي انتقد القرآن الكريم ـــ حسب ابن نبي ـــ نقدا غير نزيه، ومع ذلك فإن المسلمين لم يقفوا في وجهه بعنف وقسوة، أو هدروا دمه، وإنما حاولوا إفحامه بردودهم على أقواله بالحجة والبرهان. فالإسلام ما

(١). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٠٥.

(٢). المصدر نفسه، ص ١٢٦.

كان يعرف الإكراه كوسيلة قمع للفكر ولحرية الرأي، لأن معتنقه لا يمتثل له امتثالا أعمى، وإنما على أساس من فهم حقيقته ومقصده ومغزاه.

من ذلك أن، ابن نبي، كان يرى أن للحضارة بعدا دينيا على اعتبار أن الدين يؤدي إلى تركيب مجموعة من القيم الاجتماعية تعطيه بعده الاجتماعي، والأخلاقي، فالدين الصحيح يولد الفضائل الإنسانية، التي تنبذ الفردية والأنانية، وهي القيم التي تهدف لها الحضارة الصحيحة ذاتها، فعندما يتدخل "المركب الديني" فإنه يبث الحيوية في العناصر المؤدية إلى البناء الحضاري، كما يبث الحركةوالنشاط في نفس ذلك البناء، وعلى هذا الأساس من القيم يخرج الإنسان من حالة الطبيعة ويندفع بطاقة حيوية بعد أن تكون الفكرة الدينية قد ضبطت غرائزه الفطرية الحيوانية الكامنة في طبيعته، وأخضعتها لقانون أخلاقي يجمع بين الفرد والمجتمع، ومن ثم تصمت "الغريزة" ويخضع الكل لقانون (الروح) الذي يولد النهضة والتقدم والحضارة[1] وهذا هو المبدأ الذي في رأيه، تولدت منه الحضارات في كل الأديان، وفي ذلك يشير ابن نبي إلى الحقيقة التي توصل إليها "جيزو"، حين اعتبر أن هذه الحضارة، هي من عمل الفكرة المسيحية، حين قال: ((تلكم هي السمة العظيمة الأصلية للحضارة الأوربية، منذ أن تطورت تحت تأثير الإنجيل، تأثيره الظاهر والخفي ...))[2].

ولهذا كان الدين الإسلامي دين حضارة لأن من مظاهره، تعاليمه الأخلاقية، فهو حين يدعو معتنقيه بالتميز عن غيرهم فإن ذلك يكون على أساس أخلاقي لا

---

(١). فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط٢، ١٩٨١م، ص٤١٤.

(٢). مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٧٣.

غير، إذ جاء في قوله تعالى: ((كنتم خير أمة أخرجت للناس، تـأمرون بـالمعروف، وتنهون عن المنكر))[1]، فالأخلاق الدينية، تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان، وتهدف في الوقت نفسه إلى رعاية مصالح الآخرين، وهي كما يقول مالك بن نبي: ((تـدفع الفرد إلى أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته))[2]، إن هذه الغائية هي التي في رأيه، يجب أن تميز كيان الإنسان العربي المسلم، وتميز في الوقت نفسه أفعاله وأعماله.

ثالثا: صلة التعاون الثقافي بالبناء الحضاري

كان للمبدأ الذي تبناه المسلمون في بداية تأسيسهم لحضـارتهم والمتمثـل في الإطلاع على حضارة وثقافة الآخر[3] ــ رغم اخـتلاف الاعتقـادات والعـادات والتقاليد ــ أثره الواضح في الاستفادة من تلك المواريث الثقافية والحضارية للأمـم الأخرى. وقد بنى المسلمون حضارة خاصة متميزة، تكونت من خلال تلاقحها مع الثقافات الأخرى، ولذلك كان مالك بن نبي، يحث الجزائريين، على تمثـل هـذه الطريقة التي في رأيه: ((تنير أمامها سبيل تجربتها الخاصة، وتجربة الآخرين حـتى لا

(١). آل عمران، ١١٠.

(٢). مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص٢٤٨.

(٣). كان المسلمون، أثناء تأسيسهم لحضارتهم التي ــ لا زالت مظاهرها ماثلة للعيان ــ منفتحين على الآخر وعلى ثقافته، وما الدور الذي لعبه المسلمون الأوائل أمثال: الفارابي، وابن سينا، والماوردي، وابن رشد.. وغيرهم من فلاسفة الإسلام، في نقل التراث اليونـاني وغـيره، وصبغوه بصبغة إسلامية إلا دليلا على ذلك.

تعمد إلى اختيار مجحف بقيمها الثقافية الموروثة))[1]، ومن هنا يتعين على الجزائر كما يقول: ((أثناء قيامها باختيارها أن تأخذ بعين الاعتبار واقعا جديدا يتمثل في معرفة أن كل قيمة ثقافية محددة في إطار وطني، قد أصبحت تمتزج من هنا فصاعدا في تيار ثقافة عالمية شاملة))[2].

فمن هذه الرؤية يذهب، ابن نبي، إلى أن بناء أية حضارة لا يمكن أن يكون إلا على أساس الثقافة، باعتبارها هي: ((المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموع من القواعد الأخلاقية والجمالية))[3]، التي تربط سلوك الفرد بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، أو هي، بمعنى آخر: ((كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون، وروحانية الغزالي، أو عقلية "ديكارت" وعقلية "جاك دارك"، هذا هو معنى الثقافة في التاريخ))[4].

وعلى هذا النحو من النظر، فإنه لا توجد في رأي، بن نبي، ثقافة واحدة، بل هناك ثقافات متعددة ومتنوعة، تتعاون فيما بينها، ومن ثم تنشأ الحضارات التي تشكل الجسر الذي تمر به المجتمعات الإنسانية نحو التواصل والرقي والتقدم، وفي ذلك يؤكد، ابن نبي، إلى أن: ((هناك مؤرخون يرون أن نهضة أوربا في القرن السادس عشر، تعد تركيبا حققه الزمن والأحداث على الحدود بين الثقافة الإسلامية

(١). مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص١٣٩.

(٢). المصدر نفسه، ص١٤٢.

(٣). مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص ٣٥.

(٤). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص٧٧.

والعالم المسيحي))[1]، ومن ثمة فإنه إذا كانت الثقافة هي التي تنتج الحضارة، فإن العملية أيضا تسير بوجهة عكسية، إذ لا حضارة من دون ثقافة، ولا ثقافة بدون حضارة.

إن شعور ابن خلدون في عصره بهذه العلاقة التلازمية بين الثقافة والحضارة، هو دليل على المستوى الثقافي والحضاري الذي كان عليه المغرب العربي في وقته، وفي هذا المعنى، يقول، ابن نبي، بأن: ((مجال ثقافة ما إنما هو مدى حضارة، ومؤلف المقدمة [ابن خلدون] شعر به بحدة كبيرة وبكل مأساوية، في ذلك العصر الذي انتهت به الحضارة، إذ حيثما شهد بثاقب نظره الأفول الثقافي في المغرب، كان يعي بحسرة وحنين تدني الثقافة في الشرق الأوسط الإسلامي))[2].

وهكذا فإن من سمات الحضارة، الانتشار والتوسع، وذلك هو المبدأ الذي سارت عليه الحضارة الغربية ـ الآن ـ فقد استطاعت أن تنشر إشعاعها على كل بقاع العالم، بفضل توسعها الاستعماري، ومن جملة ما نشره ذلك التوسع الاستعماري هو منظومة من الأفكار، حسب ابن نبي، التي سعى الاستعمار إلى نشرها في قوالب معينة، لكنها أحيانا تعمل لغير صالح الاستعمار ذاته.

وفي هذا السياق، يرى ابن نبي، بأن الحضارة قد امتدت إلى: ((ميدان النشاط المعادي للاستعمار. ونحن نجد ذلك أولا في القوة الفكرية التي أمدت هذا النشاط، فلقد اقتبست الشعوب المستعمرة إلى جانب عناصر الفلسفات الفكرية التي

---

(١). المصدر نفسه، ص٩٧.

(٢). المصدر نفسه، ص ١٢٨.

استمدهّا من ثقافتها الخاصة، اقتبست علاوة على ذلك من ثقافة أوربا ومن تجربتها الاجتماعية والسياسية عناصر أخرى لا يمكن إغفالها))[1].

فمن هذه الرؤية يرى، ابن نبي، أن الإنسان في القرن العشرين — وهو عصر ابن نبي — أصبح يعيش مشكلات إنسانية مشتركة، ولذلك ينبغي على المفكر المسلم اليوم أن يساهم في حل هذه المشكلات الإنسانية العامة، إذ أن: ((المثقف المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة، حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي))[2]، بمعنى أن الإنسان المسلم يمكن أن يؤدي هذا الدور، سواء بفهمه للحضارة المعاصرة وتكييفه مع متطلباتها ومتطلبات الإنسانية، أو بإعادة صياغة عناصر وأدوات حضارته وتراثه لتتلاءم مع العصر الراهن، ومن ثم يحدث تواصلا واستمرارية مع ذاته، ومع طموحه، ويزيل من مظهره صفة الوحدانية والتوحش المنافي لكل ثقافة، وحضارة.

ففي بعدها الفكري والثقافي لم تعد الحضارة تقتصر على مجتمع معين، وإنما هي من اهتمامات وأوليات كل البشر حيثما كانوا، وحيثما وجدوا[3]، فهم مطالبون بأن يتعاونوا ويتكاتفوا في خلق ثقافة من شأنها أن تفضي إلى صنع الحضارة الإنسانية، مما يخلق نوعا من الفاعلية والنشاط بين أفراد الجماعات البشرية، على مستوى الفكر والمنهج والعمل، بحيث تتحدد من خلال تلك الفاعلية الوظائف والأهداف والغايات

---

(١). مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢، ص٢٧٤.

(٢). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١١٦.

(٣). راجع في ذلك أيضا: عنصر العلم ودوره في البناء الحضاري، في هذا الفصل.

الأمر الذي يتطلب ضمنيا تعاونا أخلاقيا بين أفراد الجنس البشري، وفي ذلك يقول ابن نبي أن: ((غاندي لم يكن يتصرف في صاروخ كوني، أعني في(شيء) ذي مستوى عالمي، وإنما كان يملك ضميرا تراحب حتى وسع العالم))[1]، فعلى هذا المستوى فإن عظمة أية أمة، لا يمكن أن تجد لوجودها مكانا إلا إذا كانت لها أفكارا تتبناها وتدافع عنها، باعتبارها مثلها الأعلى، وإلى ذلك يشير، ابن نبي: ((فهيبة الأمة قد تكفلها لها أحيانا الأفكار، إذا ما تناغمت هذه الأفكار مع المرحلة التي تجتازها الإنسانية))[2]. وأن: ((المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج))[3].

في هذا الصدد، يتبين، أن ابن نبي، يعارض كل من يعتقد أن الحضارة هي ذلك الجانب المادي كالصاروخ، والطائرة، والباخرة، والبندقية، وإنما الحضارة هي في رأيه ذلك الجانب الفكري والثقافي، أو هي بتعبير آخر منظومة من الأفكار التي تستطيع أن تؤسس للجانب المادي وللجانب الروحي أيضا، كل المعطيات التي تنهض عليها الروح والمادة معا.

فالفكرة في رأي ابن نبي، هي الفيصل والمقياس لكل تقدم أو تطور، إن هذه النظرة لا تتماشى في رأيه مع وجهة نظر الإنسان المسلم المعاصر الخاطئة المبنية على

---

(١). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١١٧.

(٢). المصدر نفسه، ص١١٧.

(٣). مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص١٩٨.

الأشياء والوسائل المادية، حيث يقول ابن نبي، إن الإنسان المسلم: ((يفسر أصل دائه تفسيرا خاطئا حتى يعزوه إلى نقص (أشياء) كثيرة في حياته، على حين أن ما ينقصه إنما هو "الأفكار"))[1]، ثم يستنتج من ذلك، قائلا: ((سنظل نكرر ونلح في تكرارنا أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل، وإنما في الأفكار، وما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا، فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالا، بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم))[2] فالفكرة إذن هي أساس الوجود، وهي التي عبر عنها "ديكارت"، حين قال: ((أنا أفكر، فأنا إذن موجود))، وليست المادة أو وسائلها هي أساس الوجود.

من هذا المنظور المعرفي فإن الحضارة: ((لا يمكن الحصول عليها إلا بالإنسان المتعقل لفعله، المدرك لوقته، والمتفاعل مع التراب، والمتناغم مع التراث، والمتعلق بالمعارف العالمية على السواء، دون أن يتحول إلى زبون يستهلك ولا ينتج))[3]، لأن الحياة الإنسانية لا تعني في الحقيقة مجتمعا بعينه، وإنما تعني كل المجتمعات البشرية على وجه الأرض، ورغم وجودها في وحدات، إلا أن كل وحدة منها معنية بالمساهمة في بناء الحضارة.

---

(١). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١١٧.

(٢). المصدر نفسه، ص١١٧.

(٣). عبد القادر بوعرفة، الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر ٢٠٠١، ص٨.

لقد أدركت الإنسانية في هذا العصر، من خلال ما توصلت إليه من بناء للمؤسسات، إلى التعاون الفكري والحضاري بين جميع الشعوب. ولعل إنشاء منظمة اليونسكو يدخل في إطار ذلك الإدراك، لأنها منظمة قامت بالتوحيد بين الثقافات والأفكار والحضارات، ليستفيد بها الإنسان حيثما وجد، مما يندرج في إطار خلق نوع من التسامح والتكاتف بين كل الثقافات والحضارات، ومن هنا: ((فالثقافة الحضارية ينبغي أن تعطي لفكرة السلام شخصيتها الحقيقية، بأن تضعها منذ الآن تحت ضمان المبادىء))[1].

ومن مظاهر الشراكة الثقافية العالمية بين الشعوب في القرن العشرين حسب ابن نبي، هي تكوّن الضمير الإنساني الواحد، وفي ذلك يقول: ((غير أن الضمير الإنساني في القرن العشرين إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية))، ولأن: ((الثقافة أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي، لأن المنابع التي تستقي منها أفكارها ومشاعرها، والقضايا التي سوف تتبناها(...)لا تستطيع هذه كلها أن تجتمع في أرض الوطن))[2]، إن الحضارة من هذا المدلول تتحدد في إطار إرادة الحياة الاجتماعية المشتركة بين أبناء البشر، باعتبار ذلك هو التعبير الحي لكل وجود إنساني فاعل.

---

(١). مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٢٨.

(٢). المصدر نفسه، ص١٢١.

رابعًا: تمجيد الدين العلم

يعتبر مالك بن نبي أن من بين ما أنتجته الحضارة هو "العلم" الذي أنتج بدوره الحضارة، وقد حاول ضبط مفهومه، من خلال تحليله له بقوله، هو: ((مجموعة المعلومات ومجموعة الطرق المؤدية لاكتسابها))، ولكن هذا التعريف من وجهة نظره غير كامل لأنه لا يشير إلى تطور التاريخ العلمي الذي يلعب دورا أساسيا في بناء العلم، ولكن ذلك منوط بمجموعة من الشروط النفسية والاجتماعية تؤثر إيجابيا وسلبيا على التطور العلمي، ويقدم مثالا على ذلك، غاليلي، فقال: ((حين أعلن نظرية دوران الأرض، لم تواجهه معارضة علمية، بل معارضة كلامية، تعني معارضة عقائدية، ولم تدن غاليلي أكاديمية العلوم، بل أدانته محكمة دينية تحكمت في أمره باسم العقيدة، إن ما أدانه هو بالتالي مجموعة عوامل القمع والحرمان الموجودة في نفسية المجتمع الذي حكم عليه بالإعدام))[1].

ولذلك فإن العلم في اعتقاده، إذا كان مجردا من هذه العوامل والنفسيات، لا يمكن أن يطور، إذ لتطوير المجتمع علميا، يجب أن نطوره اجتماعيا، حتى يصبح مؤهلا على تقبل العلم ونظرياته ومساهما في تطويره، ولعل الحضارة في – بعض الأحيان – هي التي خلقت هذا العداء للعلم وليس العلم لنفسه، ومن هنا وجب أن نميز بين العلم، وبين الشروط النفسية والاجتماعية المرتبطة به، لأن عاتق دول العالم

---

(١)- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص١٨٥.

المتأخر اليوم ليس انعدام النظريات والقوانين والوسائل العلمية، وإنما انعدام الشروط النفسية والاجتماعية المرتبطة بتطور العلم، وبتطور الحضارة.

بهذه الآراء حاول ابن نبي تلمس الطرق المختلفة التي يمكن من خلالها إيجاد الحلول للإشكالية التي أثيرت حولها جدالات كثيرة في الفكر العربي الإسلامي، والمتمثلة فيما يلي: كيف يمكن لنا النهوض، هل بالرجوع إلى أصالتنا وتراثنا ورفض كل ما وصلت إليه الأمم الأخرى؟ أم يكون ذلك بالاعتماد على ما وصلت إليه الأمم والشعوب الأخرى؟ أم يجب أن نميز في ذلك الاعتماد بين ما يوافقنا، وما لا يوافقنا؟ بين ما يخدم مجتمعاتنا وما لا يخدمها؟وهل بالضرورة ما يخدم المجتمعات الأخرى يخدمنا؟.

إن جواب ابن نبي كان واضحا من خلال إدراكه للمستوى الحضاري المتدني الذي يوجد عليه مجتمعنا، والمستوى المتقدم الذي توجد عليها المجتمعات الأخرى، وأدرك الهوة بينهما، ورأى أنه من فائدتنا وفائدة مجتمعنا، أن نعتمد على حضارة الآخر، وأن نأخذ منها ما يتوافق وأصالتنا وثقافتنا، وهو في هذه الرؤية، يتوافق مع آراء أغلب المفكرين العرب المحدثين والمعاصرين، الذين حاولوا إيجاد مسوغات للتوفيق بين الاقتباس من الحضارة الغربية، والواقع المتميز للأمة العربية الإسلامية.لأن الإسلام وحضارته لا يعادي أي علم من العلوم، فهو يعظم العلم، ومحبيه، ويدعو إلى احترام حامليه، وآياته الدالة على هذا كثيرة ــ لا يتسع المجال هنا لذكرها ــ فالعلوم: ((كلها أثمرها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف منها في عهد

مدنيته الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليـــوم))[1]، فيجـــب على العرب المسلمين اليوم، التحرر من العقد التي كونتها فيهم الحضارة المعاصرة، وينطلقوا في بناء حضارتهم الجديدة انطلاقا من المفهوم الإسلامي السليم للحضـــارة وللإنسانية، لمواصلة رسالتهم الخالدة في التاريخ.

---

(١). مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص ١٧٧، ١٧٨.